

الشعر والشعراء

لابن قتيبة الدينوري

تعريف بالمؤلف :-

هو عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى ، ويكنى " أبو محمد " ولد بالكوفة ، ثم فارقها مرتحلاً ، إلى " دار السلام " فى وقت بلغت فيه عاصمة " بنى العباس " أوج عظمتها ، وبلغت من التمدن والتحضر شأواً عظيماً ، وقدرأً عالياً ، وفيها درس على " إسحاق بن راهوية " و " محمد بن زياد الزياىدى " و " أبى حاتم السجستانى " وغيرهم كثير . كما أن ابن قتيبة الدينورى اتصل بالعلماء ، والأدباء ، وغشى مجالسهم ، وحضر ندواتهم ، وأعجب بها ، وقضى جُل حياته فى " بغداد " وكان يومذاك مركزاً للثقافة ، ومنازراً للعلم ، كما كانت بغداد حينذاك كعبة قصاص . ومحط ركاب العلماء والأدباء ، والشعراء ، والمحدثين والمتكلمين .

وقد طلب " ابن قتيبة " العلم ، ثم تولى التدريس ، وعكف على التصنيف ، ثم نراه يترك " بغداد " لمدة وجيزة ، وذلك للعمل فى القضاء " بدينور " بيد أنه ضاق بقيود الوظيفة كما ضاق بها " الجاحظ " من قبله والسر فى ذلك أنها أى الوظيفة " لباس الذل وشعار الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، فهم مع ذلك فى تكدير وتنقيص ، خوفاً من سطوة الرئيس وتتكيل الصاحب ، وتغير الدول " ، فعاد ابن قتيبة إلى " بغداد " ومكث بها حتى لحق بربه - عز وجل عام ست وسبعين ومائتين للهجرة النبوية الكريمة والذى يوافق من الميلاد سنة تسع وثمانين وثمانمائة وذلك على أرجح الروايات ..

وكان " ابن قتيبة الدينورى " عالماً باللغة والنحو ، وغريب القرآن ، ومعانيه ، والشعر ، والفقهاء كثير التصنيف والتأليف^(٢٠) وتاق فى سنة باكرة أن يكون أديباً ، وذلك بمفهوم الأدب على أيامه فهو يحدث عن نفسه فيقول : " كنت فى عنفوان الشباب ، وتطلب الآداب ، أحب أن أتعلم من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم

" ويزيد الأمر وضوحاً فيقول : " من أراد أن يكون عالماً فليطلب قنأً واحداً ، ومن أراد أن يكون أديباً فليوسع في العلوم " .

وقد اتسع ابن قتيبة في العلوم ، فدرس اللغة الفارسية وأجادها وقرأ التوراة والإنجيل وقبس منهما كما كان ملماً بالفلسفة ، فنراه ينقل عن أرسطو ويقول " قرأت في كتب العجم والهند واليونان " وأخذ ابن قتيبة الدينوري بحظ وافر من النزاع العقدي الذي كان يلف عصره ، ويحط بأقطاره وجميع مناحيه . بيد أن " ابن قتيبة " لزم جانب أهل السنة وناجح عنه . وكان لها مثل ما كان الجاحظ للمعتزلة . وشارك في الصراع العنصري الذي كان قائماً بين العرب ، والموالي .

وقد أدرك ابن قتيبة أن هذه النزعات تسيء إلى الإسلام ، وفيها تشويه لمعانيه السامية ، وقيمته السامية . فالعرب هم ماد الإسلام كما يقول سيدنا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . واتخذ ابن قتيبة ذلك النفاح ضد الشعوية مبدأ له وكان يقول : لا يمنعني نسبي في العجم أن أدفعها يعني - الشعوية - عما تدعيه لها جهلتها . وكان ورعاً ، ومتواضعاً ، حسن العشرة ، موطأ الأكتاف ، عف الخصومة ، مع اعتداد بالنفس ، وترفع عن الدنيا . وكان مولده عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ للميلاد لأب فارسي أصله من مدينة " مرو " .

توابعه :-

كان " ابن قتيبة الدينوري " غزير المعارف كثير التأليف . وجاءت توابعه صورة صادقة لثقافته ، حيث إنها جاءت متنوعة تنتظم جلّ معارف عصره ، وقد ذكر له صاحب الفهرست ثلاثة وثلاثين كتاباً ، ويرتفع بعضهم بها إلى ستين ونيف ، وبلغ بها آخرون ثلاثمائة .

ويبدو لى أن الذين نسبوا إليها هذه المؤلفات خلطوا بين أسماء الكتب . وبين أسماء الفصول التى تحويها الكتب الكبيرة وكان يطلق عليها أحياناً اسم " كتب " كما نراه فى " معانى الشعر الكبير " حيث إنه يحتوى على " اثنى عشر كتاباً " يعنى فصلاً .

واهتمامات هذه الكتب . النحو ، واللغة والأدب شعراً ، ونثراً ، وأمثالاً وعلم التاريخ والآداب الاجتماعية ، وسواها .

ومن تأليفه أيضاً :

الأنواء ، والمعارف ، والشعر والشعراء ، والمسائل ، وعيون الأخبار ، ومعانى الشعر ، والميسر ، والقداح . ونعنى هنا بدراسة كتاب " الشعر والشعراء " .

بين يدي الكتاب

هناك خلاف بين العلماء على " عنوان الكتاب " فإن النديم يسميه " الشعر والشعراء " وفى كتاب " المحاسن والأضداد " للجاحظ نراه يذكر باسم " أخبار الشعراء " وابن قتيبة فى معارفه يسميه " كتاب الشعراء " وفى عيون الأخبار يسميه " كتاب الشعر " وعنوان مخطوطة بيروت - لبنان - " ديوان الشعر والشعراء " ومخطوطات القاهرة الثلاث ، واحدة تسميه " الشعر والشعراء " وفى مخطوطات برلين ولندن يجئ اسمه هكذا كتاب طبقات الشعراء " (٢١) .

ويقول ابن قتيبة عن كتابه " الشعر والشعراء " هذا الكتاب ألقنه فى الشعراء ، أخبرت فيه عن الشعراء ، وأزمانهم ، وأقدارهم ، وأحوالهم فى أشعارهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومن كان يعرف باللقب ، أو بالكنية منهم ، وعما يستحسن من أخبار الرجل ، ويستجد من شعره ، وما أخذته العلماء عليهم من الغلط ، والخطأ فى



ألفاظهم ، أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون ، فأخذه عنهم المتأخرون . وأخبرت فيه عن أقسام الشعر ، وطبقاته ، وعن الوجوه التي يختار الشعر عليها ويستحسن لها إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول ، وكان أكثر قصدي للمشهورين من الشعراء ، هم الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب ، وفي النحو ، وفي كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأتا من خفي اسمه ، وقل ذكره ، وكسد شعره ، وكان لا يعرفه إلا بعض الخواص ، فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ^(٢٢) ، إذ كنت لا أعرف منهم إلا القليل ، ولا أعرف لذلك القليل أخباراً .

ولم أسلك فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له ، سبيل مَنْ قَلَدَ ، أو استحسن باستحسان غيره ، ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظاً ، ووفرت عليه حقه . حيث إنى رأيت بعض علمائنا يستحيد الشعر السخيف لتقدم قائله ، ويضعه في مُتَحِيرِهِ ، ويرذل الشعر الرصين ، ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ، أو أنه رأى قائله ، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن . ولا خص به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر . وجيل جل قديم حديثاً في عصره ، وكل شرف خارجية في أوله ، والخارجي هو الذي بشرف بنفسه فهو شبيه بالعصامي .

وقديماً قالوا : " ليس العصامي كالعظامي " ، فقد كان جرير والفرزدق والأخطل وأمثالهم يعدون محدثين ، وكان أبو عمرو بن العلاء يقول : لقد كثر هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماً ليعد العهد منهم . وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا مثل " الخزيمي ، والعتابي ، والحسن بن هاني ،



وأشباههم ، فكل من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه له . وأثنينا به عليه ، ولم يضعه عندنا تأخر قائله ، أو فاعله ، أو حادثة سنه . كما أن الردئ إذا ورد علينا للمتقدم ، أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه .

نماذج من الكتاب

أقسام الشعر

يقول أبو محمد : تدبرت الشعر فوجدته أربعة أضرب :

أولاً : ضربٌ منه حسن لفظه ، وجاد معناه ، كقول القائل فى بعض بنى أمية :

فى كفه خبز ران ريحه عبقٌ	من كفّ روع فى عرينه شممٌ
يفضى حباءً ويُفضى من هبابته	فما يكلم إلا حين يبتسمُ

لم يقل فى الهبة شئ أحسن منه .

ثانياً : وضرب منه حسن لفظه وحَلا ، فإذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى كقول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجةٍ	ومسح بالأركان من خوماسح
وشدّ على دهم المهارى رحالنا	ولا ينظر النادى الذى هورايحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بينناوسات	بأعناق المطى الأباطحُ

هذه الألفاظ كما ترى ، أحسن شئ مخرج ومطالع ومقاطع .

ولو نظرت إلى المعنى وجدته : ولما قطعنا أيام منى ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبلنا الأنضاء ، ومضى الناس لا ينظر الفادى الرائح ، ابتدأنا فى الحديث ، وسارت المطى فى الأبطح وهذا الصنف فى الشعر كثير .

ثالثاً : وضرب منه جاد معناه ، وقصرت ألفاظه عنه ، كقول لبيد بن ربيعة:

ما عاتب المرء الكريم لنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح

هذا ، وإن كان جيد المعنى والسبك ، فإنه قليل الماء والرونق .
رابعاً : وذرب منه تأخر معناه ، وتأخر لفظه . كقول الأعشى فى امرأة :

وَفُها كَأَقاحى غِذاه دائِمُ الهِطلى
كما شَبَّتْ بِداحِ با رِدِّ من عِسلِ النحلِ

تراجم الشعراء

الأسود بم يعفر

شاعر جاهلى . وهو من بنى حارثة بن سلمى بن جندل بن نهشل بن دارم ،
ويكنى " أبا الجراح " وكان أعمى ولذلك قال :

ومن الحوادث لا أبالك أننى ضُربتُ على الأرضِ بالأسدادِ
لا أهتدى فيها لمدفع تلقه بين العذيبِ قبين أرضِ مُرادِ

أوائل الشعراء

لم يكن لأوائل الشعراء إلا الأبيات القليلة يقولها الرجل عند حدوث الحاجة ،
فمن قديم الشعر قول " ذؤيد بن نهد القضاعي " :

اليوم يُبنى لدويد بيته لو كان للدهر بلىً أبليته
أو كان قرنى واحداً كفيته يا رَبِّ نَهْيِ صالحِ حويته
وربَّ عَبلٍ خَشِنِ لويته (٢٣)



أبو الهندي

هو " عبد المؤمن بن عبد القدوس بن شيبث بن ربيع من بني زيد بن رياح بن يربوع ، وكان مغرمًا بالشراب ومات " بسجستان " وهو القائل بصف الأباريق ^(٢٤):

سبقتني أبا الهندي عن طلب سالم أباريق لم يعلق بها وضراً الزبد
مقدمة قراً كأن رقابها رقاب بنات الماء تفزع للرعد

وسالم الذي ذكره هو " مولى قُديد بن منبع المنقري " ^(٢٥) ، ولأبي الهندي ديوان شعر صغير الحجم قمنا بدراسته وشرحه وهو مطبوع ^(٢٦).

٢٤ - الشعر والشعراء ج ١ ص ٤٨ .

٢٥ - الشعر والشعراء ج ٢ ص ٦٨٢ .

٢٦ - جمع ودراسة وشرح للمؤلف أ.د / علي الخطيب .